تجربة يمنى العيد:

إن الممارسة النقدية عند يمنى العيد هي ضرب من النشاط الذي يتجاوز محدودية نصوص الأدب إلى مضمار الثقافة والمجتمع والفكر، وقد أشارت إلى ذلك صراحةً بقولها: "ممارسة النقد الأدبي نشاط فكري يشتغل على الأدب كموضوع له، النشاط الفكري، أي نشاط فكري، لا يبدأ من صفر. لا بدايات، بالمعنى المطلق، في التاريخ الحضاري للإنسان. ومن ثم فالنشاط الفكري هو سلسلة في حقل نشاطه بخاصة، وفي حقل النشاط الثقافي والاجتماعي بعامة...".

وهي بذلك تشي أن ممارسة النقد الأدبي على الوجه البنيوي ما هي إلا محاولة لإنتاج موضوع نقدي حين يعز على النقد أن ينتج موضوعه، وبغض النظر عن الأسلوب اللغوي المفكك في كتابها "في معرفة النص" عامة، إلا أن مقدمتها التي بلغت ست عشرة صفحة لا يفهم منها سوى أنها تريد أن تبتكر لغةً نقدية سمتها ممارسة، وتبتكر موضوعاً للنقد ضمن شروط الثقافة والفكر، ومن ثم تريد إعادة إنتاج المفاهيم لتؤسس حقلاً للدراسة البنيوية يردف جهود نقاد آخرين، وهذا ما أشارت إليه في نهاية مقدمتها: "وليكن لي من محاولتي هذه قناعتي بأنها محاولة نأمل أن تردف ما قدمه نقاد آخرون في ميدان نقدنا الحديث".

تكلمت يمنى العيد في القسم النظري من كتابها على التحول من الواقعية إلى البنيوية في النقد العالمي، ومن ثم عبرت عن فهمها للتقيدات البنيوية التي كشفت من خلال ممارستها النقدية في القسم الآخر من الكتاب، أنها تريد تجريب أدواتها على النصوص الحديثة والتراثية، وقد ألحت على علاقات بنيوية معينة أجملتها في عدة مفاهيم مثل مفهوم النسق ومفهوم التزامن ومفهوم التعاقب ومفهوم الطابع اللاواعي للظواهر. والمهم في كلامها النظري ما كان قد اتصل بالمنهج البنيوي في مقاربة موضوعه، وقد قام ذلك المنهج لديها على منطلقين اثنين: الأول: تحديد البنية أو النظر إلى موضوع البحث على أنه بنية، والآخر: تحليل البنية وكشف عناصرها الرموز والصور والموسيقى في نسيج العلاقات اللغوية أي في أنساقها، لكشف ملابسات بنيتها من الداخل والخارج. وأما الهدف الذي يرمي إليه تحليلها فقد أجملته في قولها: "نعيش في بلداننا العربية ظرفاً تاريخياً صعباً. ظرفاً تسقط فيه باستمرار ملامح جمالٍ، لا يمكننا أن نرى في النقد البنيوي

المقتصر على التحليل مساراً لنقدنا. قد يكون لهذا النقد التحليلي البنيوي حضور. هذا أمر لا يستطيع أحد منعه، غير أن وجود مثل هذا النقد أو عدم وجوده لا يعفينا أو لا يعفي النقد، وخاصة ما كان منه يمارس المنهج البنيوي، من بلورة مسار قادر على إقامة العلاقة بين داخل النص وخارجه، أو قادر على النظر إلى هذا الخارج إلى هذا الكل داخل النص ذاته".

إن فحوى ما تريد قوله الباحثة هنا أن الظروف الصعبة التي نعيشها تستوجب تطبيق المنهج البنيوي على النصوص العربية لاستعادة جمال مهدور من نصوص أدبنا وحياتنا، ومن شأن البنيوية أن تجعل ظروفنا الصعبة أكثر جمالاً ، غير أن إلحاحها على تأكيد علاقة الخارج بالداخل في تحليل النصوص ترمي فيما يبدو إلى أبعد من تحقيق غايات جمالية، وإن كان كلامها المثبت لا يبوح بمثل هذه الغاية صراحة، لأن الجدل بين ما هو خارج وما هو داخل يطول الأنساق الثقافية والفكرية التي ينتج النص في ضوئها. والسؤال المهم هنا: هل البنيوية قادرة على خلق اعتياد لغوي وأدبي يمكن من إنهاء حال التخلف الاجتماعي والفكري العربي في العصر الحديث، هذا ما لم تقله الباحثة صراحة، ربما كانت اللغة عصية عليها في هذا الموضوع، من أجل ذلك عادت إلى القول مرة ثانية: "نحن في بلداننا العربية أكثر ما نكون حاجة إلى مثل هذا النقد الذي لا يهمل النص كنص أدبي، ولا يهمله في جسده الذي هو اللغة والذي في ما هو يشتغل على هذا الجسد ويصل إلى الأحشاء فيه، فيكشف غناه ويلامس أسراره، ويراه في الوقت نفسه، في المجال الذي ينهض فيه على الجهر بجمال جسد ويشرع لنا نوافذ نطل منها على زمن نسعى ويسعى التاريخ إليه".

لقد وثقت الباحثة بالبنيوية أكثر مما ينبغي، فصورت الحاجة إلى النقد البنيوي في المجتمع العربي كحاجته إلى الماء والطعام، والمغالطة في هذا الزعم تتمثل في إخراج البنيوية من سياقها المنهجي التحليلي إلى سياق الحياة بكل صعوباتها ومشاكلها، والذي سوغ للباحثة كل ذلك أنها فهمت من الجدلية بين خارج النص وداخله أنها العلاقة ذاتها بين تفسير النص وحركة الحياة، وعدت صور الفن شريحة تبدو من خلالها كل معوقات التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري.

إن الملابسات التاريخية والاجتماعية المحيطة بالنص الأدبي هي في الأصل خارج التحديد البنيوي، الذي ينطلق أساساً من البنى اللغوية للنصوص، ثم يربط ما شاء له أن يربط بين البنى النصية اللغوية وعوالقها الاجتماعية والتاريخية وغيرها، لأن تلك العوالق تبقى خارج البنية النصية وإن فرضت نظامها على نظام النص، وهذا هو المقصود من جدلية الداخل والخارج في موضوع الدراسات البنيوية، وقد قلبت الباحثة المسألة فيما يبدو لنا لتعاين من خلال البنى النصية الأوضاع الاجتماعية المحيطة بالنص لغرض الإثارة، فبدت في معالجتها لا تهتم إلا بتشخيص تلك الأوضاع، أو الهروب عن النص لإقناع القارئ أن معوقات التطوير في البنى الاجتماعية والفكرية تحول دون التقيد بحدود البنى اللغوية ومن ثم تجاوزت ما تنطوي عليه النصوص من ظواهر فنية خلاقة يمكن أن تثري إحساس القارئ بالجمال والمتعة والفائدة.

إن الوظيفة الاجتماعية ليست وظيفة نوعية للأدب ، والتغيير الاجتماعي ليس الهدف الأسمى للفن، لأن له وظيفةً جمالية خلاقة تعمق وعي القارئ بالمشكلات التي يواجهها، والباحثة فيما يبدو لنا حين تكلمت عن صلة الواقعية بالبنيوية كانت تجوز التوصيف التاريخي للمسألة، لهذا عدت الفن وسيلة تحريض وتغيير، ومن ثم ركزت على وظيفته الاجتماعية، فظلت إشاراتها إلى الوظيفة الجمالية خارج حدود الاهتمام، من أجل ذلك كانت نتائجها في الممارسة التطبيقية ضئيلة قياساً بالأهداف الكبيرة التي رسمتها في كلامها النظري.